بورتريهات الفيوم
"رؤية جديدة"(١).

أ.د حسين الشيخ*

حوالي عام ١٨٨٠ بدأت مجموعة من البورتريهات تظهر في أسواق أوربا والولايات المتحدة الأمريكية ، وقد أتت هذه البورتريهات من منطقة الفيوم في مصر، ثم ظهرت مجموعة أخرى أتت من الحفائر التي أجراها "فلندرزبتري" في منطقة الهوارة، وقد زاد عدد البورتريهات على الألف، أتى أغلبها من الفيوم، ولذلك أطلق عليها "بورتريهات الفيوم"(٢).

والفيوم عبارة عن منخفض يقع على بعد ستين كيلومتراً جنوب القاهرة إلى الغرب من نهر النيل، بما يكفي لعدم تأثر المنطقة بفيضان النيل، حيث دفن السكان من المتأغرقين والمترومنين موتاهم، وفي القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد، كان الموتى من الأغنياء يتم تحنيطهم، ويزود تابوت المومياء ببورتريه للميت يرسم على لوح من الخشب الرقيق يوضع مكان الوجه على التابوت(٣).

---

(1) كانت بداية هذه الدراسة اطلاعي على مقال للطبيب الاسكندنافي راي أندرسون عن أمراض العيون في مصر القديمة، قد لفت نظري قول الباحث أنه قد لاحظ في العديد من الآثار المصرية القديمة ظاهرة جحوظ العينين، إلا أن هذا ــ حسب رايه ــ لا يعد دليلا قاطعاً على تضخم الغدة الدرقية، وربما كان هذا اتجاهاً فنياً في طريقة تمثيل الشخصيات

S.Ry Anderson, The Eye and its Diseases in Ancient Egypt, Acta Ophthalmologica Scandinavica, Vol 75(1997), pp.338-344.

يضاف إلى ذلك دراسة أحدث في فرع جديد من فروع علم الجغرافيا هو "الجغرافيا الطبية" حيث يقول الباحثون أن مرض تضخم الغدة الدرقية Goitre والذي ينجم عن نقص اليود، من الأمراض التي انتشرت في المجتمعات القديمة مثل الصين واليونان ومصر، وغالباً ما كانت تتم معالجته بالأعشاب البحرية التي تحوي قدراً كبيراً من اليود بشكل طبي

Charlotte A. Bowman, Peter T. Bobrowsky and Olle Selinus, Medical Geology, New Relevance in the Earth Sciencesn Episodes, School of Earth and Ocean Sciences, University of Victoria, Canada, vol. 26, No. 4 (December 2003) pp. 270-278.

* جامعة الملك سعود ــ الرياض

(2) Euphrosyne Doxiades, The Mysterious Fayoum Portraits,
The American University Press in Cairo 2000, cf. Petrie w. m. f., Hawara, Biahmu and Arsinoe, London 1889.
Idem., Ten years digging in Egypt, 1881-1891, London 1893, Repr. Chicago 1989.
Charlotte A. Bowman, Peter T. Bobrowsky and Olle Selinus, Medical Geology, New Relevance in the Earth Sciencesn Episodes, School of Earth and Ocean Sciences, University of Victoria, Canada, vol. 26, No. 4 (December 2003) pp. 270-278.

(3) ويبعد الفيوم ٦٠ كيلومتراً جنوب غرب القاهرة،والموقع القديم هو Crocodilpolis والتي ظهرت حوالي ٤٠٠٠ق.م وتعتبر من أقدم المدن المصرية،واسم الفيوم يأتي من الكلمة الهيروغليفية=

وعلى الرغم من تفرد هذه الأعمال الفنية وجمالها وحيويتها، إلا أنها عانت من إهمال علماء الآثار ومؤرخو الفن لها لفترة طويلة لعدة أسباب، منها: عدم القدرة على نسبة أي من هذه الأعمال لفنان معين، بالإضافة إلى انتشارها وتعدد نماذجها، فمثلاً نجد بورتريه يوناني على مومياء مصرية تؤرخ بالعصر الروماني، مما يسبب إرباكاً شديداً، كما أنه قد أشيع عن هذه البورتريهات أنها مزورة بسبب أن بعضها وجد بحالة جيدة جداً، حتى أن كثير من العلماء اعتقدوا أنها غير حقيقية(٤).

كما أثارت هذه البورتريهات جدلاً وإنقساماً بين الأثريين ومؤرخي الفن، فقد رفضها بعض الأثريون على اعتبار أنها مزيفة، فهي مجرد عمل فني، أما علماء المصريات فقد رأوا أنها ليست مصرية، بينما هي كذلك عند المتخصصين في فترة العصرين اليوناني والروماني، كما أنها مبكرة تماماً عن العصر البيزنطي، رغم أن المشتغلين بهذه الفترة يرون فيها إرهاصات واضحة للأيقونات.

إلا أن النظرة الموضوعية لهذه البورتريهات توضع أنه على الرغم من ارتباطها بالمومياوات المصرية، وعلى الرغم من طرز تصفيف الشعر والحلي والملابس ذات الطابع الروماني، تظل هذه الأعمال الفنية يونانية الطابع، تعود جذورها إلى مدرسة الإسكندرية الفنية، فحتى في فترة حكم الرومان، ظل الفن السكندري يحمل روحه اليونانية ، مثله مثل اللغة الرسمية التي ظلت كما هي اللغة اليونانية(٥).

PA-y-m= والتي تحولت في اللجهة القبطية إلى EFiom/Peiom حيث كلمة Payom تعني البحر أو البحيرة، والتي غالباً ما أشارت إلى بحيرة موريس

CF. Lane, M. E, A Guide to the Antiquities of the Fayyum, Cairo 1985
- Parlasca k. et al., EL Fayyum, Milan 1985.

البوابة الإلكترونية لمحافظة الفيوم

Http://www.Fayoum.gove.ed/default.aspx

وقد أصبحت المنطقة ذات جانبية خاصة للباحثين وخاصة في بورتريهات الفيوم، إلا أن بعض الدراسات تشتط في فرضياتها ونتائجها لتتحول إلى مغالطات ومهاترات تهدف أساساً إلى جذب انتباه القارئ ولو كان ذلك على حساب الحقائق التاريخية.

انظر: مراد محمد محمود الدش، صخور الفيوم تكشف معجزات الأنبياء، وتقصى تاريخ مصر القديمة وتاريخ الأنبياء على ضوء الاكتشافات الحديثة، القاهرة ١٩٩٨. حيث جعل المؤلف من الفيوم مركزاً لأغلب أحداث التاريخ القديم وتاريخ الديانات، فآدم عنده هو الإله أتون المصري، وأوزوريس هو النبي إدريس، ومتوسط العمر في ذلك الوقت (١٠,٠٠٠ ق.م حسب رأيه) كان ١٢٠٠ عام وطول الإنسان حوالي ٤٠ متراً بدأت في النقصان لتصل بسكان الفيوم في عهد بناة الأهرام إلى ١٥ متراً، وأن قوم عاد هم من بنوا الأهرامات، وأن تمثال أبو الهول يمثل النبي نوح عليه السلام، وأن خروج اليهود من مصر والذي تم عن طريق الفيوم، كان مؤقتاً، حيث عادوا مرة أخرى باسم الرعامسة وحكموا مصر في الدولة الحديثة، إلى آخر ذلك من الأراء الغريبة التي لا تستند على أية حقائق تاريخية.

(4) Edgar, C. C.M, On the Dating of the Fayum Portraits, JHS, 25 (1905), 225-33
(5) Doxiadis, op. cit. p. 12

أما عن التقنية المستخدمة في اخراج هذه البورتريهات، فقد رسم بعضها بطريقة الشمع المصهور Encaustic ، والبعض الآخر بالألوان الممزوجة بصفار البيض أو بعض المواد الغروية Tempra، والبعض استعمل فيه رقاقات خشبية، أما البعض الآخر فقد استعمل فيه قماش الكتان، وقد صور الفنان في بعض البورتريهات الرأس فقط، وفي البعض الآخر أضاف أجزاء من الجسم كالعنق وجزء من الكتفين، وبعض البورتريهات تبدو كما لو أنها رسمت في حياة المتوفي، ووضعت في اطار معلق على الحائط، ثم استخدمت بعد موته لتوضع على تابوته، والبعض الآخر يبدو أنه رسم على عجل بعد موت الشخص، ربما في حالة الموت المفاجئ، والبعض يبدو وكأنه نموذج تجاري يرسم بغض النظر عن شخصية وطبيعة المتوفي(٦).

وفي رأي البعض(٧)، قد تعكس هذه البورتريهات الحالة الاجتماعية والوضع الطبقي بالإضافة إلى السن والنوع للأشخاص الذين مثلوا، ونرى أنها قد تعكس أحياناً الوضع الصحي لهؤلاء الأشخاص الذين مثلوا، فعلى سبيل المثال لدينا(٨):

- أشكال ١، ٢ مومياء وبورتريه لرجل في منتصف العمر تعود غالباً إلى عصر الإمبراطور جالينوس (٢٥٣-٢٦٨) منفذة بطريقة التمبرا.
- أشكال ٣، ٤ مومياء وبورتريه لامرأة في منتصف العمر تعود غالباً إلى نفس الفترة ومنفذة أيضاً بطريقة التمبرا.

والمثالان من الواضح أنهما يعودان إلى رجل وامرأة من طبقة عليا بسبب غنى الزخارف واستعمال أوراق الذهب كعنصر جمالي ويبدو أنهما قد رسما أثناء حياة المتوفيان حيث يوجد اهتمام واضح بالتفاصيل الصغيرة، لكن ما يهمنا هنا هو النظرة العميقة التي تتجه مباشرة إلى المشاهد والعيون الجاحظة بشكل مبالغ فيه مع التأكيد على الحواجب الكثيفة وما حول الفم بما يعطي احساساً بالحزن والكآبة، بالإضافة إلى تضخم الرقبة بشكل واضح بما لا يتسق مع الملامح الهادئة لكلا البورتريهين.

- شكل ٥ بورتريه لشاب هو العبد المعتق أيوتيخوس يعود غالباً إلى فترة الإمبراطور سبتميوس سفيروس (١٩٣-٢١١)، وكانت ملكيته تعود إلى "كاسيانوس" كما يتضح من النقش اليوناني المكتوب باللون الأسود على التونيكا التي يرتديها، وغالباً كان من قرية فيلادلفيا. ورغم الحيوية التي يتميز بها هذا البورتريه إلا أننا نلمح أيضاً النظرات الحزينة في حدقات الأعين الجاحظة ونفس الرقبة المتضخمة.

---

(6) Ibid. Loc. Cit

(7) Montserrat, Dominic, The Representation of Young Males in Fayoum Partraits, JEA., 79-(1993) PP.215-225

(8) Photos Credit to: Doxiadies, EuphRosyne, The Mysterious Fayum Portraits

ما لم ينص على غير ذلك فجميع البورتريهات المذكورة مرسومة بطريقة : Encaustic on Panel

- شكل ٦ بورتريه لشابة يعود غالباً إلى عصر الإمبراطور تيبريوس (١٤-٣٧) ويبدو أنها تنتمي إلى طبقة عليا بسبب كثرة استعمال الذهب في زخرفة البورتريه، ورغم الملامح الهادئة والوجه الشاحب إلا أننا لا نزال نلمح نفس ظاهرة العينين الجاحظتين والرقبة المتضخمة.
- شكل ٧ بورتريه لامرأة ناضجة تسمى إيساروس يعود غالباً إلى الفترة من ٥٠-١٠٠ ويجسد هذا البورتريه ملامح الحزن والمعاناة بسبب نفس نظرة العيون الجاحظة والحواجب الكثيفة بالإضافة إلى الرقبة المتضخمة بشكل لافت.
- شكل ٨ بورتريه لامرأة ناضجة يعود غالباً إلى عصر الإمبراطور نيرون (٥٤-٦٨) وتنطبق عليه نفس الملاحظات السابقة من جحوظ العينين والرقبة المتضخمة بشكل لافت.
- شكل ٩ بورتريه لرجل ناضج غير معروف يعود غالباً إلى النصف الأول من القرن الثالث الميلادي منفذ بطريقة التمبرا، يحمل نفس الملامح السابق الحديث عنها مع تضخم الرقبة التي لا تتسق هنا مع الملامح الهادئة الحزينة.
- شكل ١٠ بورتريه لرجل ناضج يعود إلى أواخر عصر هادريان وأوائل عصر أنتونينوس بيوس (١٣٠-١٦١م) يحمل نفس النظرة الحزينة مع جحوظ العينين وتضخم الرقبة.

أما في الأربعة نماذج التالية فسوف نلاحظ مايلي:

- شكل ١١ بورتريه لرجل في منتصف العمر يعود إلى حوالي منتصف القرن الأول الميلادي، ورغم الحاجبين الكثيفين إلا أن نظرة العينين تبدو متألقة مليئة بالحياة وربما ساعد على ذلك توظيف الفنان للتضاد اللوني بين الأزرق والأبيض والأحمر ثم التضاد بين الأسود والرمادي
- شكل ١٢ بورتريه لأحد المصارعين (غالباً) يعود إلى عصر الإمبراطور تراجان (٩٨-١١٧)، نلاحظ أن العيون غير جاحظة والنظرة عادية رغم الرقبة العريضة نوعاً ما والتي يفسرها كون الشخص أحد الرياضيين
- شكل ١٣ بورتريه لإمرأة يعود إلى عصر أنتونينوس بيوس (١٣٨-١٦١)، ونلاحظ العيون العادية غير الجاحظة بل والجميلة والنظرة المليئة بالحيوية والرقبة العادية
- شكل ١٤ بورتريه لشابة يعود إلى عصر كاليجولا أو كلوديوس (٣٧-٥٠) تدعى "إيرين" كم يوضح النقش الديموطيقي الموجود على الرقبة، ونلاحظ النظرة المليئة بالحيوية والحياة والرقبة العادية الغير متضخمة وإجمالاً يعد هذا البورتريه من أجمل الأعمال التي وصلتنا من الفيوم.

وعلى هذا فيمكن القول ـــ طبقاً للأمثلة السابق عرضها ـــ أن بورتريهات الفيوم قد تم تنفيذها بطريقتين على الأقل: الأولى ركز فيها الفنان على بعض الأعراض

غير الصحية للمتوفي مثل الجحوظ الشديد في العينيين وتضخم الرقبة بشكل لافت للنظر، أما الطريقة الثانية فقد ركز فيها الفنان على إبراز حيوية الشخص الذي يمثله بل وتحول البورتريه إلى صورة مليئة بالحياة والجمال.

ونقترح هنا أن الأشخاص الذين مثلوا بالطريقة الأولى هم أشخاص قد عانوا أثناء حياتهم من مرض تضخم الغدة الدرقية أو ما يعرف باسم "مرض جريف" Graves disease[٩]، والذي ينجم عن نقص عنصر اليود في جسم الإنسان وينتشر في المناطق التي يقل فيها اليود كالمناطق البعيدة عن المسطحات المائية المالحة (البحر ـــ البحيرات المالحة)[١٠].

وقد أكدت الدراسات السابق الإشارة لها[١١]. انتشار هذا المرض في مصر القديمة، وخاصة في مناطق مثل الفيوم والوادي الجديد، وتدعم الدراسات الحديثة التي أجرتها منظمة الصحة العالمية ومنظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة هذا الرأي حيث تفيد نتائج هذه الدراسات استمرار انتشار المرض في الفيوم والوادي الجديد بالإضافة إلى بعض المناطق الأخرى مثل محافظة الغربية، ويبدو أن القاسم

---

(٩) الغدة الدرقية Thyroid Gland تقع في المنطقة الأمامية من الرقبة أمام القصبة الهوائية، وتشبه في شكلها الفراشة ذات الأجنحة المفرودة، وهي ذات لون بني محمر، وتتكون من فصين، وهي من الغدد الصماء التي تدخل إفرازاتها إلى الدم مباشرة دون الحاجة إلى قنوات خاصة لنقلها. وتمثل الغدة الدرقية محطة لتوليد الطاقة في الجسم البشري، وتعتبر ترمومتر الجسم، فهي مسئولة عن إفراز هرمون الثايروكسين Thyroid وأحياناً ما يختل عمل هذه الغدة فيقل إفرازها للهرمون، وبالتالي يزيد وزن المريض ويميل إلى النعاس والكسل ويحس دائماً بالبرودة، وعلاج هذه الأعراض بسيط عن طريق تناول حبوب بديلة للهرمون الذي تنتجه الغدة الدرقية، أما الخلل الثاني الخطير في عمل الغدة فهو زيادة إفرازها للهرمون والذي ينتج غالباً عن حاجة الجسم لعنصر اليود وبالتالي يقل وزن المريض مهما تناول من أطعمة، ويزيد عدد مرات التبول مع تضخم في حجم الرقبة وجحوظ واضح في العينين، وهو ما يطلق عليه مرض جريف Graves Disease وعادة ما يتم علاج هذا الخلل عن طريق اليود المشع وغالباً ما يتوقف المرض، أما إذا عاد مرة أخرى، فلا بديل عن التدخل الجراحي لاستئصال الغدة أو غالبيتها، ويتم التعويض عنها بالأدوية التي يستمر المريض في تناولها بشكل دائم.

http://en.wikipedia.org/wiki/thyRoid

(١٠) يوجد اليود بكثافة في الغدة الدرقية (٢٥ ضعف بقية أنسجة الجسم) ويؤدي نقص اليود في الجسم إلى تضخم الغدة الدرقية، وبالتالي الأعراض السابقة ذكرها، ويمكن تجنب الإصابة بهذه الأعراض عن طريق تناول اليود بأشكاله المختلفة (الملح المدعم باليود، الأسماك والمنتجات البحرية).

CF. Throid Disease Manager (http:www.thyroidmanager.org/) (Free online textbook)
Thyroid Disease (http://www.nucmedicine information)

(11) charlotte A. Bowman et al., op. cit., pp.270-278

المشترك بين هذا الأماكن هو بعدها عن المسطحات المائية المالحة مثل البحر والبحيرات المالحة[١٢].

وعلى هذا يمكن القول أن الرأي التقليدي القائل بأن تصوير الشخصيات في الفن المصري المسيحي القديم ـــ أو ما أطلق عليه الفن القبطي ـــ كان يركز على تصوير معاناة هذه الشخصيات نتيجة الاضطهاد الذي ما رسته الإمبراطورية الرومانية ضد المسيحية والمسيحيين عن طريق التركيز على العينين وملامح الوجه بشكل عام[١٣]، هو رأي غير صحيح إلى حد كبير حيث توجد لدينا العديد من الأمثلة ـــ خاصة من بورتريهات الفيوم ـــ التي صور فيها الفنان الشخصيات الممثلة بشكل طبيعي بل وبشكل ملئ بالحيوية والحياة والجمال، ولكن طريقة تصوير الفنان لبعض الشخصيات والتي ركز فيها على الملامح الحزينة عن طريق إبراز جحوظ العينين إنما كانت محاكاة واقعية لبعض الشخصيات التي أصيبت أثناء حياتها بمرض جريف أو تضخم الغدة الدرقية.

---

(12) F. A. EL Mougi, S.Abd EL-Ghaffar, N. A. F. Fayek, Iodine Deficiency indicators in a samples of school-age children in Egypt, Eastern Medeterranean health Journal, WHO, vol.10, No6(2007) pp. 863-870،

ويقول الباحثون أن الدراسات السابقة التي أظهرت وجود مرض تضخم الغدة الدرقية بشكل لافت في مصر تتفق مع نتائج هذه الدراسات التي أظهرت أعراض المرض في القاهرة بنسبة ١٣,٥% في عينة من أطفال المدارس الابتدائية، أما في جنوب القاهرة (منطقة الفيوم) فوصلت النسبة إلى ٢٧,١%. ويؤكد هذا تقرير منظمة الأغذية والزراعة Fao الصادر في أغسطس ٢٠٠٣ عن اختلال وجود اليود في عينة من أطفال المدارس والذي يؤدي إلى ظهور أعراض تضخم الغدة الدرقية

Fao-Nutrition Country Profiles – Egypt (August 2003) Rome, 39-44 .

وفي نفس الاتجاه يأتي تقرير منظمة الصحة العالمية WHO الصادر في ٢٠٠٩/١١/١٨ عن نقص اليود المؤدي إلى ظهور أعراض المرض

The database on Iodine deficiency includes data by country on Goitre Prevelance and/ or urinary iodine concentration, Egypt, WHO(2009).

(13) حول الفن المصري في العصر المسيحي والآراء التقليدية حول إيحاء الفنان بمعاناة مسيحيو هذه الفترة بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له والذي انعكس على الأعمال الفنية فأصبحت توحي بالحزن والكآبة والمعاناة الشديدة، وتمثل ذلك في العيون الجاحظة والنظرة الحزينة إلى لا شيء، راجع: عزت قادوس، محمد عبدالفتاح السيد، الآثار القبطية والبيزنطية، الإسكندرية، ٢٠٠٢، صفحات ٦-١٢، ١٩٦ – ٢٠٨.

محمد عبدالفتاح السيد، الثقافة والفن المصري في العصر القديم المتأخر، الإسكندرية، ٢٠٠٨، صفحات ١٣٧-١٧٠، ٣٦٢ ـــ ٣٧٥.

لوحة رقم (١)

شكل (١)

شكل (٢)

لوحة رقم (٢)

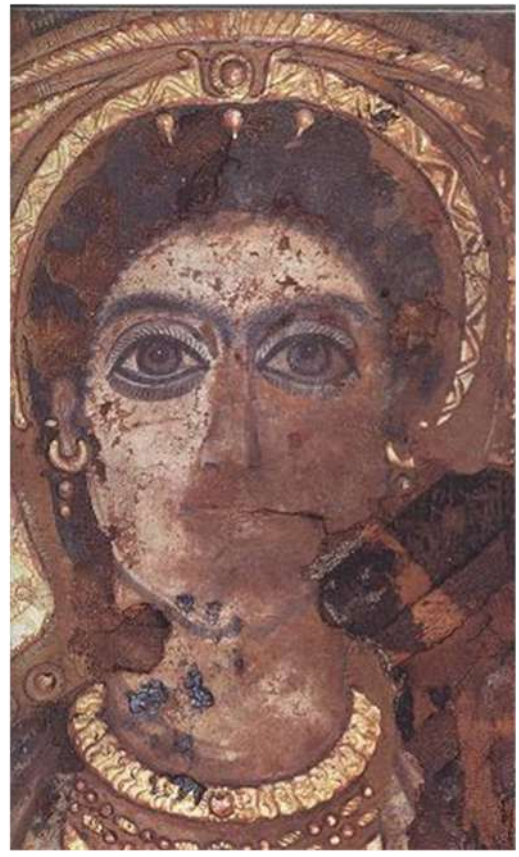

شكل (٣)

شكل (٤)

لوحة رقم (٣)

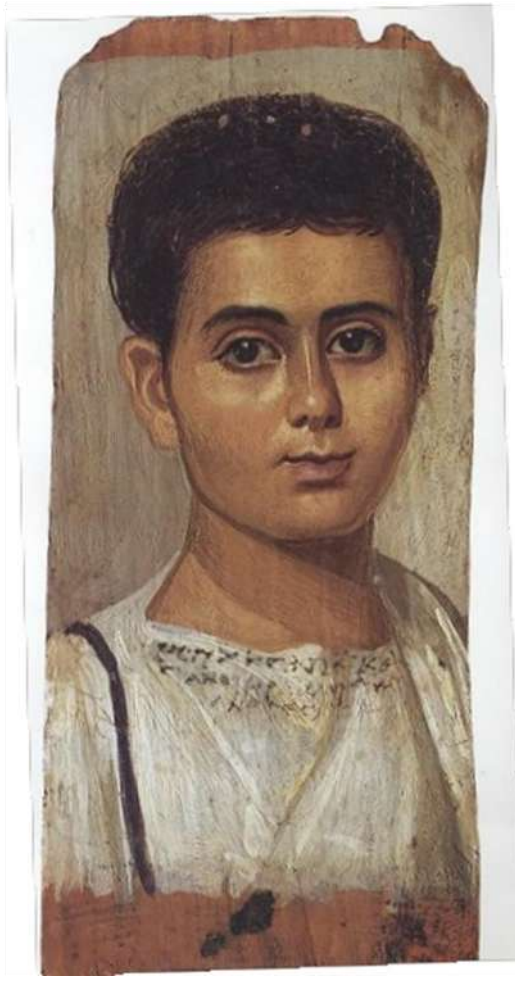

شكل (٥)

لوحة رقم (٤)

شكل (٦)

لوحة رقم (٥)

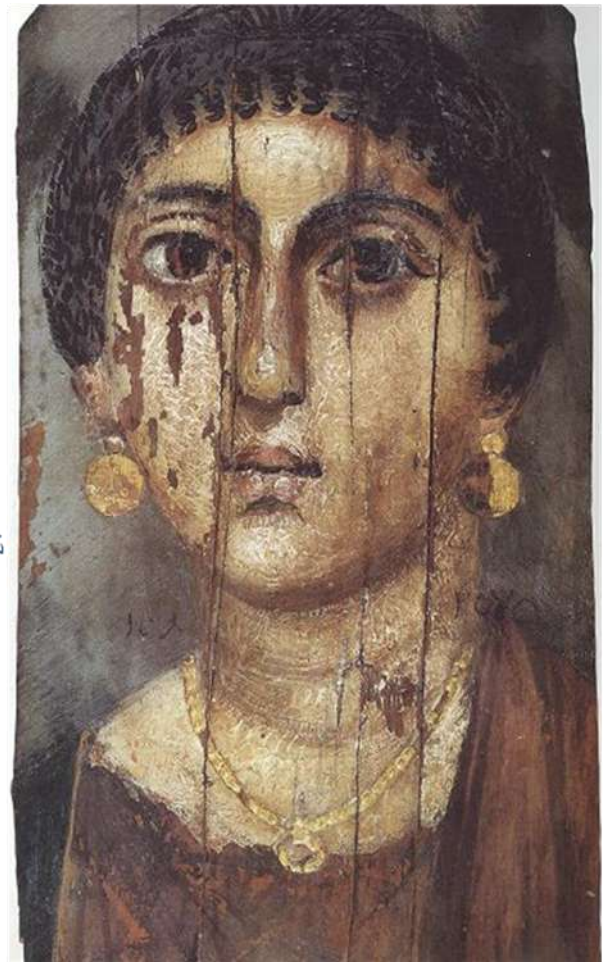

شكل (٧)

لوحة رقم (٦)

شكل (٨)

لوحة رقم (٧)

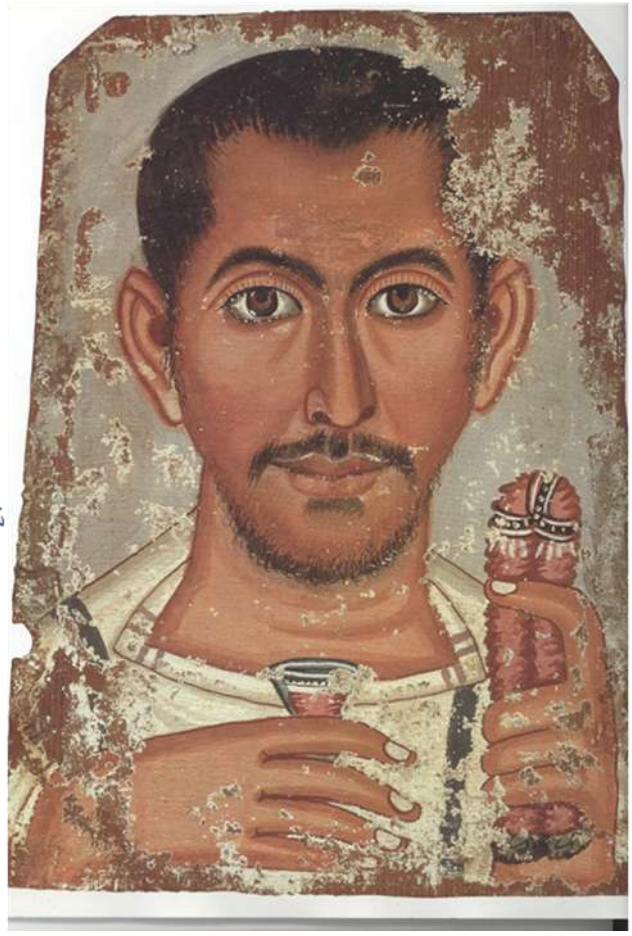

شكل (٩)

لوحة رقم (٨)

شكل (١٠)

لوحة رقم (٩)

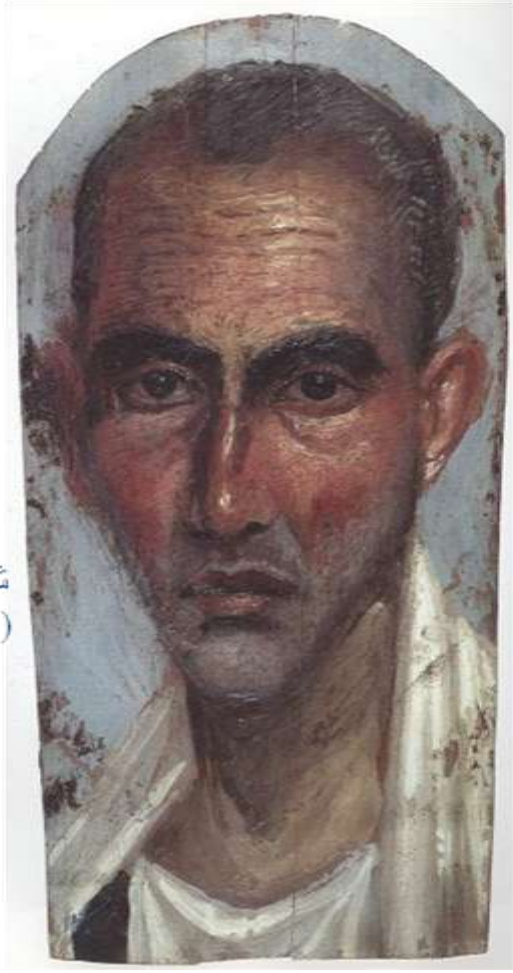

شكل (١١)

لوحة رقم (١٠)

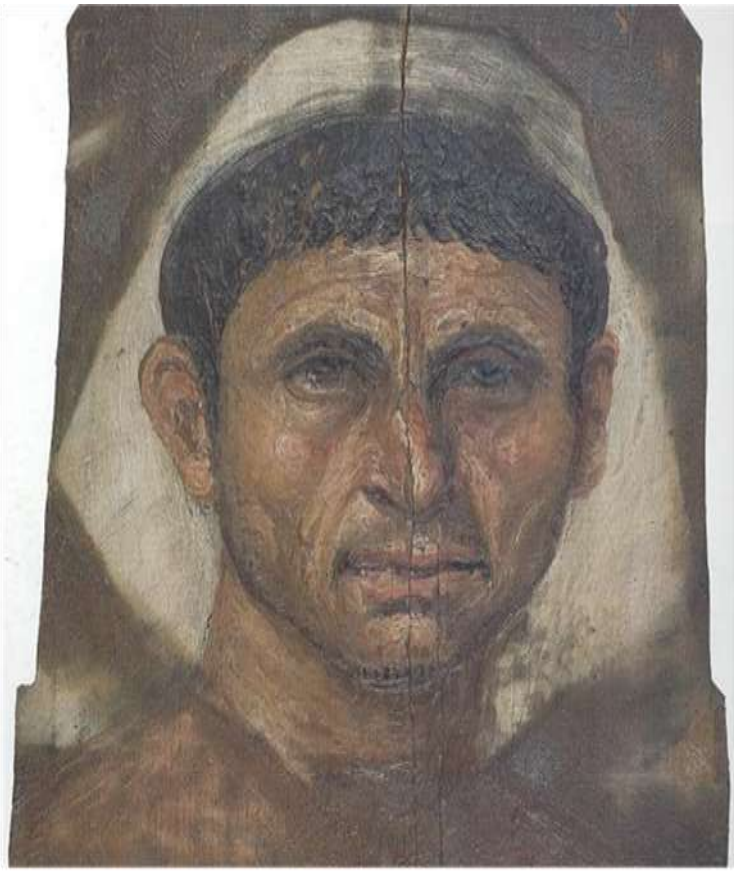

شكل (١٢)

لوحة رقم (١٢)

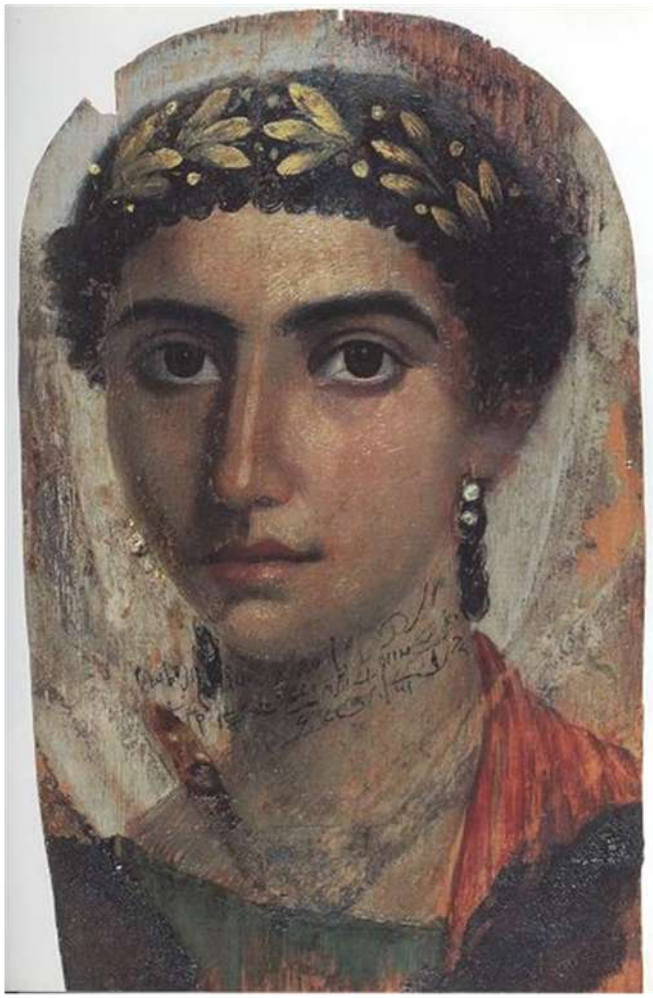

شكل (١٤)

لوحة رقم (١١)

شكل (١٣)